﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ١ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ٢﴾ [التكاثر: 1 - 2]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

الانشغالُ بالدُّنيا عن طاعةِ الله سببٌ للهلاكِ في النّار الهاوية

لَمّا أثبتَ البيانُ الحكيمُ في القارعة أمرَ السّاعةِ، وقسَّمَ النّاسَ فيها إلى شقيٍّ وسعيدٍ، وختمَ بالشَّقيِّ؛ افتتحَ سورة التَّكاثرِ بعِلَّةِ الشَّقاوةِ ومبدأ الحشر؛ ليَنزَجِرَ السّامعُ عن هذا السَّبب ويكون مِن القسم الأوَّل، فقال ما حاصِلُهُ: انقسَمْتُم فكان قِسمٌ منكم هالكًا؛ لأنَّه أغفلتْهُ المُباهاةُ والمُفاخرةُ بكثرةِ الأعراضِ الفانيةِ عن التَّدبُّر في أمر القارعة[1].

إن كانت النارُ للكافر أمًّا، فإنه هو ابن لَهُو التكاثر

قال تعالى في آخر آية من سورة القارعة ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ٩﴾ فجاءت سورة التكاثر لتذكّر بحقيقة الإنسان، وأين يجب أن يشغل فكره، وما الذي يلهيه عن تلك الحقيقة العجيبة، فهذه السّورة تمثِّلُ علَّة الوعيد المتقدِّم في سورة القارعةِ للكافرين.

يقولُ الغرناطيِّ: "لمّا تقدَّم ذِكرُ القارعةِ وعظيمُ أهوالِها أُعقِبَ بذِكرِ ما شغلَ وصَدَّ عن الاستعدادِ لها وألهَى عن ذِكرِها؛ وهو التَّكاثرُ بالعَددِ والقُرُباتِ والأهلينَ فقال: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ وهو في معرض التَّهديدِ والتَّقريع، وقد أعقبَ بما يَعضدُ ذلك وهو قوله: ﴿كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٣ ثُمَّ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ ثمّ قال: ﴿كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ﴾"[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَلۡهَىٰكُمُ﴾: أصلُ (لهو) "يَدُلُّ على شُغْلٍ عن شَيءٍ بشيءٍ"[3]،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 271، والبقاعي، نظم الدرر: 22/ 225.
(2) الغرناطيّ، البرهان في تناسب سور القرآن، ص: 375.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لهو).

واللّهْو معروفٌ، تقولُ: لَهَوتُ عنه ألهو لُهيًّا، ومعناهُ السُّلوانُ والتَّركُ، وألهاهُ اللَّعبُ: سلّاهُ وشَغَلهُ عن الأهمِّ، ولَهيَ عَنهُ: سَلا ونَسيَ وغَفَلَ وتَرَكَ ذِكْرَه، وأصْلُ اللّهْو: التَّرْويحُ عَنِ النَّفْسِ بما لا تَقْتَضيهِ الحِكمَةُ، وألْهاني الشَّيءُ - بالألِف - شَغَلَني، ومنه قوله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾[1]، "أي شَغَلَكُم عَمّا يَجِبُ عليكُم الاشتِغالُ به؛ لِأنَّ اللّهْو شُغْلٌ يصرِفُ عن تَحصيلِ أمرٍ مُهِمٍّ"[2].

2) ﴿ٱلتَّكَاثُرُ﴾: مِن الكثرة، وهي ضِدُّ القِلَّة، والمعنى المحوريُّ: زيادةُ عَدَد أفراد الشَّيء بالنِّسبة للمُعتاد أو المتوقَّع[3]، ومعنى التَّكاثر في الآية: المغالبةُ في الكثرة مِن الأشياء الدُّنيَويَّة كما تتغالبُ الجاهليَّةُ بكثرةِ أموالِها وأثاثِها، وقِراها الضّيفان وغيرِه، والمعنى أنَّه شَغَلَهُم تكاثُرُهُم بذلك حتَّى ماتوا فزاروا المقابر[4]، أي: شغلهم التَّباري والتَّغالبُ في الكثرة والتَّفاخر والتَّناهي بها في الأموال والأولاد وغيرِها من أمور الدُّنيا المرغوب في كثرتها عن طاعة الله تعالى[5].

3) ﴿ٱلْمَقَابِرَ﴾: أصلُ (قبر) يَدُلُّ على غُموضٍ في شَيءٍ وتَطامُنٍ، مِن ذلك القَبرُ قَبرُ المَيِّت، فإنْ جَعَلْتَ له مَكانًا يُقبَرُ فيه قُلتَ: أقبَرتُهُ، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ۝٢١﴾ [عبس: 21][6]، والمقابرُ: جمعُ مَقْبَرَة ومِقْبَرَة، وهي موضعُ القُبورِ، والقَبرُ: مقرُّ الميِّت، والمكانُ الذي يدفنُ فيه، وقبَرَ الميِّتَ: دَفَنه، وواراهُ التُّرابَ، وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ كنايةٌ عن الموت[7]، أي مُتُّمْ وقُبِرتم، وقيلَ: كانوا يزورونَ المقابَر فيقولونَ: هذا قبرُ فُلانٍ وهَذا قبرُ فُلانٍ؛ يفتخرونَ بذلك[8].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

افتَتَحَ الله تعالى هذه السّورةَ موبِّخًا مَن انشَغلَ عن طاعتِه قائلًا: شَغَلَكُم أيُّها النّاسُ

(1) الفيومي، المصباح المنير، والزبيدي، تاج العروس، وأحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (لهو).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 519.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كثر).
(4) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (كثر).
(5) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 675، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 195.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قبر).
(7) الراغب، المفردات، وأحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (قبر).
(8) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 195.

المُباهاةُ بكثرة المالِ والعددِ وغيرِ ذلك مِن مَتاعِ الدُّنيا عن طاعةِ ربِّكم، وعمّا يُنجيكُم مِن سَخَطِهِ عليكم حتَّى مُتُّمْ وصِرْتُم إلى المقابر فدُفِنتُم فيها[1]. وقد أخرجَ ابنُ أبي حاتم عن أبي بريدة الجرميِّ قال: نزَلتْ في قبيلتَين من الأنصار؛ بني حارثة وبني الحارث؛ تَفاخَروا وتَكاثَروا بالأحياء ثمَّ قالوا: انطلِقوا بنا إلى القُبور، فجَعَلتْ إحدى الطّائفتَين تقول: فيكُم مثلُ فلان؟ - تُشيرُ إلى القبر - ومثلُ فلان؟ وفَعَلَ الآخرونَ مثلَ ذلك، فأنزلَ اللّه: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾[2].

لا ينفكُّ الإنسانُ عن الانشغال بكثرةِ المال حتَّى يلقى مصيرَهُ الحقّ

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سِرُّ التَّعبيرِ بالفعل ﴿أَلۡهَىٰكُمُ﴾ دلالةً وصيغةً:

لفظُ ﴿أَلۡهَىٰكُمُ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ أبلَغُ في الذَّمِّ مِن (شَغَلَكم)؛ فإنَّ العامِلَ قد يَستعمِلُ جوارحَه بما يَعمَلُ وقلبُه غيرُ لاهٍ به؛ واللّهْو هو ذُهولٌ وإعراضٌ عن تحصيل أمرٍ مهمٍّ[3]، وهو مذمومٌ في القرآن، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [المنافقون: 9]، وأمّا الشُّغلُ فقد يكون بالأمر المُجدي وغيرِ المُجدي، وقد وردَ في القرآن محمودًا، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ ٥٥﴾ [يس: 55]، ولأنَّ الإلهاءَ هو الصَّرفُ إلى اللّهْو، واللّهْو الانصرافُ إلى ما يدعو إليه الهوى، ومعلومٌ أنَّ الانصرافَ إلى الشَّيء يقتضي الإعراضَ عن غيره[4].

بين دقَّةِ التَّعبير وشِدَّةِ الزَّجر

والإخبارُ بصيغة الماضي للدَّلالةِ على أنَّ الإلهاءَ حصلَ مِن المُشركين وتحقَّق[5]، وهذا أوقعُ في الزَّجر وأبلغُ في الوعيد[6].

الإخبارُ عن تلَهّي المشركينَ المحقَّق أوقَعُ في الزَّجر

(1) ابن جرير، جامع البيان: 24/ 79 - 580.
(2) الواحدي، أسباب نزول القرآن، ص: 490.
(3) ابن القيم، الفوائد، ص: 30.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 269.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 519.
(6) بنت الشاطئ، التفسير البياني: 1/ 195.

عودُ الضَّمير في ﴿أَلۡهَىٰكُمُ﴾ ودلالةُ الجَمع:

الزَّجرُ والوعيدُ لكلِّ مَن ألهاهُم التَّكاثُرُ والتَّكالُبُ على زينةِ الدُّنيا

الخطابُ في قوله تعالى: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ﴾ عامٌّ لكلِّ مَن ألهاهُم التَّكاثرُ والتَّكالبُ على زينة الدُّنيا مِن مالٍ وولد[1]، ويدخلُ فيه المشركون والفاسقون، الذين آثَروا الدُّنيا على الآخرة دخولًا أوَّليًا[2]؛ لأنَّ لفظَ ﴿أَلۡهَىٰكُمُ﴾ عامٌّ، ولأنَّ الصَّحابةَ رضي الله تعالى عنهم لمّا نزَلتِ السّورةُ فهموا أنَّهُم مُخاطَبونَ بها.

أو هو خطابٌ للمشركين، بقرينةِ غِلظَةِ الوَعيدِ بقَولِه: ﴿كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ وقَوْلِه: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ﴾، وبقرينةِ حالِ المُشركينَ الذينَ آثروا ما هُم فيه مِن النِّعمة على تلَقّي دعوةِ النَّبيِّ ﷺ، وتصَدَّوا لتكذيبِهِ وإغراءِ الدَّهماء بعدَمِ الإصغاءِ له، ولأنَّ ما ذُكِرَ فيها لا يَليقُ بالمسلمين أيّامئذٍ، والمسلمون يعلمون أنَّ هذا من خِصالِ أهل الشِّرك؛ فيعلَمون أنَّهم مُحذَّرون من التَّلبُّس بشيءٍ من ذلك، فيحذَرون من أنْ يُلهيَهُم حُبُّ المال عن شيءٍ من فِعل الخير[3].

سرُّ التَّعبير بكافِ الخطاب:

الإدانةُ والاتِّهام والتَّهديدُ

اختارَ القرآنُ الكريمُ أسلوبَ الخطاب المباشر في ﴿أَلۡهَىٰكُمُ﴾، ﴿زُرۡتُمُ﴾، ﴿تَعۡلَمُونَ﴾، و﴿لَتَرَوُنَّ﴾ ولم يَخترْ أسلوبَ الغائب والحكاية، فلم يَقُلْ: (ألهاهم التكاثر حتى زاروا المقابر)، لِما يتضمَّنُه أسلوبُ المواجهة من الإدانة والاتِّهام والتَّقريع والتَّوبيخ؛ أمّا أسلوبُ الغيبةِ فلا يَمنَحُ شيئًا مِن هذه المعاني، وإنَّما ستنحصرُ دلالتُه في التَّقريرِ والإخبار.

دلالةُ تعريف ﴿ٱلتَّكَاثُرُ﴾:

التَّكاثُرُ المَذمومُ ما كان في الدُّنيا ممّا هو شاغلٌ عن الله

الألفُ واللّامُ في ﴿ٱلتَّكَاثُرُ﴾ ليستا للاستغراقِ، بل للمَعهودِ

(1) بنت الشاطئ، التفسير البياني: 1/ 197.
(2) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 494.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 519 - 520.

السّابِقِ، وهو التَّكاثُرُ في الدُّنيا ولَذّاتِها وعَلائِقِها ممّا هو شاغلٌ عن اللّه؛ فإنَّه هو الَّذي يمنَعُ عن طاعةِ اللّه تعالى وعُبوديَّتِه، وهذا مقرَّرٌ في العُقول، ومتَّفَقٌ عليه في الأديان، وقد قال سبحانه: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [الضحى: 11][1]، فالتَّكاثُرُ مُطلقًا ليس بمذمومٍ؛ لأنَّ التَّكاثُرَ في العِلمِ والطّاعةِ والأخلاقِ الحميدةِ ليس بمذمومٍ إذا كان المرادُ أنْ يَقتديَ به غيرُه، وإنَّما المَذمومُ ما يكونُ الباعِثُ عليه هو الاستكبارُ وحُبُّ الجاهِ والغَلَبةِ، والفَخرُ بما لا سعادةَ حقيقيَّةً فيه[2].

سرُّ استعمالِ مادَّةِ التَّكاثر وصَوغها على وزن (تفاعل):

﴿ٱلتَّكَاثُرُ﴾ تَفاعُلٌ مِن الكثرةِ - نقيضُ القلَّة -، ونماءِ العدد، ويكنَّى بالكثرةِ عن العزَّة[3]، أي أنَّ النّاسَ يَتبارَون في الإكثارِ من شيءٍ مرغوبٍ في كثرته[4]، ومِنْ ثَمَّ تنبثقُ من مادَّة (كثر) كلُّ المعاني المتعلِّقة بالمقتنَيات والملكيّات والطَّمَع والاشتهاء، كما بيَّن حديثُ رسولِ اللّه ﷺ: «لَوْ أنَّ ابْنَ آدَمَ أُعْطيَ واديًا مَلْئًا مِنْ ذَهَبٍ أحَبَّ إلَيْهِ ثانيًا، ولَوْ أُعْطيَ ثانيًا أحَبَّ إلَيْهِ ثالِثًا، ولا يَسُدُّ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إلّا التُّرابُ، ويَتوبُ اللّه عَلَى مَنْ تابَ»[5]، ومن صيغتِها - التي جاءتْ على وزنِ تَفاعُل بما يُفيدُ المبالغةَ[6] - يتلخَّصُ تاريخُ البشريَّة كلُّه، فمنها انبثقَتْ كلُّ المعاني المتعلِّقة بالتَّنافس على الدُّنيا والتَّحاسدِ والتَّصارُعِ والتَّسابق وإشعالِ فتائلِ الحُروب.

تصويرٌ لنزعةِ التَّفاخُرِ والتَّنازُعِ الإنسانيِّ عبرَ التاريخ

سرُّ حذف المتكاثَرِ به:

أعرَضَ البيانُ الحكيمُ عن ذِكرِ المتكاثَرِ به في قوله تعالى:

الذَّمُّ ليس للدُّنيا وإنَّما للانشغال بأيِّ شيءٍ فيها

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 270، والبقاعي، نظم الدرر: 22/ 225.
(2) النيسابوري، غرائب التفسير: 6/ 555.
(3) بنت الشاطئ، التفسير البياني: 1/ 196.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 519.
(5) صحيح البخاري، كِتابُ الرِّقاقِ، بابُ: ما يُتَّقَى مِنْ فِتْنَةِ المالِ، رقم: 6438.
(6) بنت الشاطئ، التفسير البياني: 1/ 197.

﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾، فلم يقُلْ مثلًا: (ألهاكم التكاثرُ بالمال)؛ إرادةً لإطلاقِه وعُمومِه، وأنَّ كلَّ ما يُكاثِرُ به العبدُ غيرَه سِوى طاعةِ اللهِ ورَسولِه، وما يَعودُ عليه بنفعِ مَعادِه - من مالٍ أو جاهٍ أو ولدٍ أو علمٍ أو منصبٍ أو متاعٍ دنيويٍّ - فهو داخِلٌ في هذا التَّكاثرِ[1]، وأيضًا لم يُعيِّنْ سُبحانه المتكاثَرَ به، بل ترَكَ ذِكْرَه؛ لأنَّ المَذمومَ هو نفْسُ التَّكاثُرِ بالشَّيءِ، لا المتكاثَرِ به[2]، أي: جاءَ الحذفُ تركيزًا على جَوهرِ الذَّمِّ، فالذَّمُّ ليس للشَّيء الذي يُكاثَر به، بل لفعلِ التَّكاثُرِ ذاتِه؛ لأنَّه يُنتِجُ الغفلةَ والانشغالَ، فضلًا عمّا يُحدِثُهُ الحَذفُ مِن الإيجاز والإبهام، بما يَجعَلُ السّامعَ يتفكَّرُ في كلِّ ما يُمكِنُ أنْ يكونَ سَبَبًا في غَفلَتِه، فيُحدِثُ أثرًا نفسيًّا عميقًا وإيقاظًا للضَّمير.

سرُّ حذْفِ المُلْهَى عنه:

أعرضَ البيانُ الحكيمُ عن ذِكر المُلهَى عنه في قوله تعالى: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾، فلم يقُلْ مثلًا: (ألهاكم التكاثرُ عن كذا)، وذلك للتَّعظيم والإبهام المقصودِ بالحذف، إذ إنَّ حذفَ المتعلَّق يُضفي على المعنى عُمومًا وشُمولًا، ويُبالغُ في الذَّمِّ، فكأنَّ كلَّ ما يُلهي الإنسانَ مذمومٌ في ذاتِه، فكيفَ إذا كان إلهاءً عن أمرِ الدّين؟![3]، ولأنَّ إطلاقَ الإلهاء دونَ تقييدٍ أبلغُ في التَّوبيخ والتَّهديد؛ لأنَّ الوهمَ يذهبُ فيه كلَّ مذهَب، فيشمَل كلَّ ما يُمكن أنْ يُلهَى عنه مِن ذِكر اللهِ، ومِن الواجباتِ والمندوباتِ؛ مِن معرفةٍ وطاعةٍ وتفكُّرٍ وتدَبُّرٍ، فيعُمُّ الذَّمُّ جميعَ صوَرِ الانشغالِ عن الحقّ[4].

إطلاقُ الإلهاءِ دونَ تقييدٍ أبلغُ في التَّوبيخ والتَّهديد

وعلى القولِ بأنَّ الخِطابَ للمُشركينَ فإنَّ حذفَ المُلهَى عنه يُشيرُ إلى وضوح المقصود، وهو انصرافُهُم عن القرآن، وعن التَّدَبُّرِ فيه،

(1) ابن القيم، الفوائد، ص: 30.
(2) ابن القيم، عدة الصابرين، ص: 183، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 271.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 334، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 452.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 271.

والإنصافِ بتصديقه، وقد تحقَّقَ هذا الإلهاءُ بالفعل، كما يُفهَمُ من إيرادِ الفِعل بصيغةِ الماضي الدّالَّةِ على الوقوعِ والتَّحقُّق[1].

معنى ﴿حَتَّىٰ﴾:

﴿حَتَّىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ غاية، إمّا غايةٌ لفعل ﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾، أي استمرَّتْ مُباهاتُكُم طولَ حياتِكُم إلى أنْ زُرتمُ المَقابرَ بالموت والدَّفن؛ فالغايةُ مستعمَلةٌ في الإحاطة بأزمانِ المُغيّا لا في تَنهيَتِه وحُصولِ ضِدِّه؛ لأنَّهُم إذا صاروا إلى المَقابر انقطَعَتْ أعمالهُم كلُّها، وكانوا فيها عُرْضَةً للبَعثِ لا يَتمكَّنونَ مِن عَملِ ما يُنجيهم لأنَّ دارَ العمَل فاتتْ[2]، "ففايةُ التَّكاثر إلى زيارةِ المَقابر، وليس وراء هذا التَّكالُبِ إلّا المَقابر، يأتي بها القرآن كهذا إثرَ التَّكاثر، فيبلغُ التَّرويعُ مُنتَهاهُ بقَصْرِ المَسافةِ بينهُما، والانتقالِ السَّريعِ بل المُباغِت، من التَّكاثُرِ إلى المَقابر"[3].

ليس وراء التَّكالُب على الدُّنيا إلّا المقابر

أو غايةٌ للمُتكاثَرِ به الدّالِّ عليه التَّكاثُر، أي بكلِّ شيءٍ حتَّى بالقبور تعدّونَها، وتكونُ الزّيارةُ مستعمَلةً في معناها الحقيقيِّ، أي زُرتُمُ المَقابرَ لتعدّوا القبور[4].

سرُّ التَّعبير بالفعل ﴿زُرْتُمُ﴾ دلالةً وصيغةً:

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ ولم يقُلْ: (حتَّى صِرتُم أو رجعتُم أو انتهيتُم إلى الموت، أو سَكنتُم في المَقابر، أو أقمتُم بها)، أي: جعَلَ الغايةَ زيارةَ المقابرِ؛ لأنَّ الألفاظَ السّابقة وإنْ كانتْ تشتركُ مع لفظ الزّيارة في الدَّلالة على ضجعَة القبر، ولكن يعوزها سرُّ التَّعبير الدالُّ على أنَّها زيارة، أي: إقامة مؤقَّتة، يعقبها بعثٌ ونشور[5]؛ لأنَّ

المصيرُ إلى القبور إقامةٌ مؤقَّتةٌ، يَعقُبها بعثٌ ونشور

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 519.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 226.
(3) بنت الشاطئ، التفسير البياني: 1/ 198.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 520.
(5) بنت الشاطئ، التفسير البياني: 1/ 200.

الزّائرَ لا بدَّ أنْ يرتحلَ عن مَزاره[1]، وقدْ فهِمَ هذا المعنى الأعرابيُّ حين سمِعَ الآية فقال: بُعِثوا وربِّ الكعبة!، فقيل له: كيفَ علِمْتَ؟ قال: لأنَّ الزّائرَ لا بدَّ أنْ يَرتحل[2]، وهذا فيه تعريضٌ بالمشركين وتقريعٌ، بأنَّهم غيرُ مستوطِنين ولا مستقرّين في القبور، وأنَّهم كزائرٍ يحضرُ موضعًا ثمَّ يَظعَنُ عنه، كما كانوا في الدُّنيا زائرين لا مُقيمين؛ فدارُ القرار ليست هنا، بل هي الجنَّة أو النّار[3]، وهذا المعنى أنسَبُ بالمقام؛ لأنَّ المُشركينَ كانوا يُنكِرونَ البعثَ ويعتقدونَ دوامَ الإقامةِ في القبور.

ولأنَّ اللُّبثَ في البرزَخ وإنْ طالَ فإنَّما هو كلُبْثِ الزّائر عند مَزورِه في جَنْبِ الإقامة بعد البعثِ في دارِ النَّعيم أو غارِ الجحيم، وأنَّ الإقامة فيه محبوبةٌ للعِلْم بما بعدَهُ من الأهوال والشَّدائدِ والأوجال[4].

وكذلك فإنَّ اختيارَ لفظِ الزّيارةِ يجعلُ الآيةَ تحتملُ معنًى آخَرَ؛ وهو أنَّ المُشركين وصلَ بهم الحالُ من التَّباهي والتَّفاخُر بأعراض الدُّنيا أنَّهم بعد أن استَوعَبوا عددَ الأحياء صاروا إلى المقابر فتكاثروا، أي: تفاخَروا وتباهَوا بالأموات[5].

وأمّا إيثارُ التَّعبير بالفعلِ الماضي في ﴿زُرْتُمُ﴾؛ فلتصويرِ المُستقبَلِ في صورَةِ الماضي المحقَّقِ الوُقوع؛ لأنَّ الأمرَ آتٍ لا محالة[6]، أو لأنَّ الخبرَ عمَّن تقدَّمَهُم كان وعظًا لهُم، فهو كالخبر عنهم؛ لأنَّهم كانوا على طريقتهم، أو لأنَّ اللّه تعالى يتكلَّمُ بهذه السّورةِ عن يومِ القيامة تعييرًا للكُفّار، وهم في ذلك الوقت قد تقدَّمَتْ منهم زيارةُ القبور[7].

دلالة تعريف ﴿ٱلْمَقَابِرَ﴾:

(أل) التَّعريف في لفظ ﴿ٱلْمَقَابِرَ﴾ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ إمّا جنسيَّةٌ؛ تُفيدُ استغراقَ جنسِ المَقابر كلِّها، أي: حتى زُرتُم جميعَ المقابر على اختلافِها، فيشمَلُ المعنى جميعَ النّاسِ على مرِّ العُصور، وكأنَّ القُبورَ قد غدَتْ غايةً حتميَّةً لكلِّ مُتكاثِرٍ

(1) ابن تيمية، مجموع الفتاوى: 16/ 517.
(2) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 495.
(3) ابن القيم، عدة الصابرين، ص: 183.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 226.
(5) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 334.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/ 520.
(7) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/ 271.

في الدُّنيا، وهذا على اعتبارِ الخِطابِ لعُمومِ النّاس، وأمّا إنْ كان الخِطابُ للمُشركين فلامُ التَّعريفِ عَهديَّةٌ، والمَقابرُ هي المقابرُ المعهودة لبني حارثة وبني الحارث كما ورَدَ في سببِ النُّزول.

المقابرُ مجتمعُ الموتى ومزارُ الرّاحلين الفانينَ على اختلافِ أزمنتِهم

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿ٱلْمَقَابِرَ﴾، وجَمعِها:

المقابرُ جمعُ مقبَرة؛ بفتحِ الموحَّدة وبضمِّها، والمقبَرةُ: الأرضُ التي فيها قبورٌ كثيرةٌ، وهو مُنتهَى الجُموع، فتكون المقبرةُ جمعًا لمَجاميع، وهذا التَّوسيعُ يُرادُ له في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ أنْ يكون مُقابلًا ومُلائمًا للتَّكاثر الدّالِّ على مصير ما يتكالبُ عليه المُتكاثرونَ مِن مَتاعٍ دُنيويٍّ، فإنَّ هناك مُجتمعَ القبورِ ومُحتشَدَ الرِّمَمِ ومساكنَ الموتى على اختلافِ أعمارِهم وطبقاتِهم ودرجاتِهم وأزمنتِهم، فجاءتِ المُلاءَمةُ بينهُما بما فيهما من سَعَةٍ وشُمولٍ وعُمومٍ، وليسَ مُجرَّدَ مُلاءَمةٍ صوتيّةٍ للتَّكاثُرِ، ولذا لم يأتِ لفظُ ﴿ٱلْمَقَابِرَ﴾ في غيرِ هذه السّورة[1].

بين التَّكاثر والمَقابر تلاؤمٌ في السَّعةِ والشُّمولِ والعُموم

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإلهاء والانشغال:

الإلْهاءُ هو انشغالٌ بشيءٍ عن شيءٍ أهمَّ، فالشَّيءُ الذي ألْهاهُ سَلاهُ وجَعله يَنشغِلُ به ويَنسى ويَغفَلُ ويَترُكُ الشَّيءَ الأهمَّ، أو انشغَلَ عمّا يَعنيه ويُهِمُّه بشيءٍ لا فائدةَ منه.[2]، في حين أنَّ الانشغالَ خِلافُ الفراغ، وتوجيهِ اهتمامِه إلى الأمر، وإذا أُريدَ معنى الانشغالِ بشيءٍ عن شيءٍ تعَدَّى الفعلُ بـ(عن)، فيُقال: شُغِلَ عن الشَّيء بكذا[3]، ولا يُشترطُ أنْ يكونَ ما انشغلَ عنه أهمَّ ممّا انشغلَ به، فإذا كان الذي انشغلَ به شغَلَهُ عن شيءٍ أهمَّ تحوَّلَ الانشغالُ إلى إلهاءٍ، فالإلهاءُ

انشغالُ الإنسانِ بالتَّباري في كثرةِ الأموالِ والأولادِ عن طاعةِ الله تعالى شيءٌ مَذموم

(1) بنت الشاطئ، التفسير البياني: 1/ 200.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والفيومي، المصباح المنير، والزبيدي، تاج العروس، وأحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (لهو).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وأحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (شغل).

سلبيٌّ، والانشغالُ إيجابيٌّ، ولهذا غالبًا ما يُذَمُّ اللّهْو والإلهاءُ ولا يُذمُّ الانشغال، ومن هنا كان استعمالُ لفظِ الإلهاءِ في الآية أنسَبَ لِذَمِّ انشِغالهم بالتَّباري في كثرةِ الأموالِ والأولادِ عن طاعةِ الله تعالى وهيَ الأهمُّ.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن والستون،
من سورة القَدْرِ إلى سورة النَّاس
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن والستون، من سورة القَدْرِ إلى سورة النَّاس
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 68 ، 828 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-655-42-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 68 : المجلد الثامن والستون، من سورة القَدْرِ إلى سورة النَّاس.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-655-42-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7916426 بتاريخ 2026/01/07م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"